العناصر العاطفية

في التصوف الاسلامي

للدكتور عبد الغني شوقي

لم يكن التصوف الاسلامي يقتصر في مصادره وما آخذه على الآراء الدينية او النظريات الفلسفية التي ذاعت في المجتمع الاسلامي بعد نقل الفلسفة اليونانية والتوسع في شرحها . وان ثمة مصادر اخرى كان لها التأثير البالغ في صبغ النظريات التصوفية لدى كبار المتصوفين بالوان جذابة رائعة . تلك هي العناصر العاطفية التي استحوذت على اغلب المتصوفين فخضعوا لها بجانب خضوعهم للآراء الدينية والنظريات الفلسفية .

ووجود العناصر العاطفيه في التصوف الاسلامي هو الجانب المشرق منه . ذلك لان النظريات الفلسفية التي كانت ينطوي عليها التصوف الاسلامي كانت نظريات عقلية صرفة خالية من الوان الحماسة والانفعال كنظرية وحدة الوجود او غيرها . اما الآراء الدينية التي تشكل جانبا من التصوف الاسلامي وان كانت باعثة على كثير من انواع التعبدات الا انها لم تكن حاوية للانفعالات العاطفية التي كانت تختلج في نفوس كبار المتصوفين وتنتقل منهم الى نفوس اتباعهم ومريديهم عن طريق التقليد أو العدوى .

ويتضح من سير كبار المتصوفين انهم كانوا ذوي احساسات مفرطة في الرقه وفي سرعة التأثر . وان العناصر العاطفية كانت تستغرق جانبا كبيراً من تفكيرهم .

ونظرا لرقة احساس المتصوفين ودقة مشاعرهم كانوا بجانب تدينهم الشديد سريعي الانفعال بما يحرك فيهم العواطف كالجمال مثلا . ولما كانت روحهم الدينية نامية جدا . فكان ورعهم يحملهم على تغيير مجرى عواطفهم دون ان يقووا على كبتها . فبدلا من ان يجعلوا عواطفهم تجرفهم نحو الشهوات المنحطة والملذات الجسدية الزائلة كانوا يحولون طريق اندفاعها فيتسامون بها نحو اللذائذ الروحية العالية المجردة عن المادة . ان مشاعرهم الرقيقه كانت تبعثهم على تذوق الجمال والى العشق والهيام ولكنهم تساموا عن المفاتن الجسدية وعن العشق البشري فتغنوا بالجمال الالهي وتفانوا بعشق الذات الالهية كما ظهر في سيرة رابعة العدوية

وكانوا يحسون انهم بحاجة الى الحب . ولكنهم صرفوا تلك الحاجة الى حب الانسانية والى الايثار وحب الاحسان واجتناب الحقد والحسد وشوائب الأنانية .

وكانوا يتوقون الى اشباع عاطفة الطرب في نفوسهم . ولكنهم تجنبوا الغناء المحرم في الشريعة واحيوا حفلات الذكر التي تتلى فيها قصائد الغزل الروحي والمدائح الالهية والنبوية مما يشبع الطرب في نفوسهم ولكنه الطرب البرئ المستحب (في عرفهم)

لقد كانت الحاسة الوجدانية نامية جدا . فسكروا في نفوسهم بمحبة الذات الالهية إنصرافا عن السكر الاعتيادي . وكانت تصحب انفعالاتهم العاطفية افعال لاشعورية . لاتصدر الا عمن ملكه الشوق وبرح به الوجد وفنيت ذاتيته في حبيبه . قيل ان احد اقطاب التصوف انشد يوما في جمع مريديه هذين البيتين :

لاتسقني وحدي فما عودتني ... اني اشح بها على جلاسي
انت الكريم فما يليق تكرما ... ان يحرم الندماء دور الكاس

فتواجد مريدوه وقطع كثير منهم شعورهم دون ان يشعروا .

ومر الجنيد يوما بدرب القراطيس في بغداد فسمع جارية تغني بهذين البيتين :

اذا قلت اهدى الهجر لي حلل البلى ... تقولين لولا الهجر لم يطب الحب
وان قلت ما اذنبت قلبت مجيبة ... حياتك ذنب ليس يعدله ذنب

فاغمي عليه لشدة التأثر والوجد .

ويجب ان لاننسى ان العناصر العاطفيه في التصوف الاسلامي هي التي انتجت تلك الاشعار الصوفية الوجدانية العرفانية في الغزل الالهي والتي كانت فتحا جديدا في الشعر العربي . بل هي مفخرة الشعر العربي العرفاني في كل عصوره فهي التي انتجت ديوان [ترجمان الاشواق] للشيخ محي الدين ابن العربي الذي نظمه وفاء لذكرى حبيبته المسماة [النظام] والتي تسامى بعاطفته عن حبها الى الحب الالهي .

وهي التي انتجت ديوان ابن الفارض الذي هو نسيج وحده في الغزل الالهي . وهي التي اوحت له قصيدته الخمرية الشهيرة التي قال ان نظم في اللغة العربية ما يدانيها بمعانيها المبتكرة وبلاغة اسلوبها ؟ القورنه

عبد الغني شوقي